تعاويذ صدّ العقم وفكه والطّقوس المرافقة له في منطقة وادي سوف

– دراسة أنثروبولوجية –

Spells to preven infertility and its removal and the accompanying rituals in region Of Oued Souf

-An anthropological study-

صفاء زغدي *

جامعة مولود معمري – تيزي وزو

safa.zeghdi@ummto.dz

زهية طراحة

جامعة مولود معمري – تيزي وزو

zteraha@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/02/04 تاريخ القبول 2023/04/30 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص:

تكشف لنا الدراسة عن أهمية الطقوس الشّفوية(التّعاويذ)، في احداث الأثر المرغوب، من خلال تلك السلسة من التراكيب اللفظية التي ترسم صورة ذهنية محددة يعتقد الإنسان أن له القدرة على اخراجها.

قادنا هذا الاعتقاد إضافة إلى اهتمام مجتمع الدراسة بالتّعاويذ أن نبحث في الموضوع، لنصل إلى نتيجة مفادها أن التّعويذة يمكن اعتبارها من أشكال التعبير في الأدب الشعبي مثلها مثل المثل واللغز والحكاية والأسطورة.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: التّعويذة؛ الطقس؛ العقم؛ الأنثربولوجيا؛ وادي سوف.

Abstract:

The study reveals to us the importance of oral rituals (incantations), in producing the desired effect, through that series of verbal structures that draw a specific mental image that a person believes he has the ability to produce.

This belief, in addition to the interest of the study community in spells, led us to research the subject, to reach the conclusion that the spell can be considered a form of expression in popular literature, just like proverbs, riddles, tales, and legends.

key words*:* Spell; Ritual; Infertility; Anthropology; Oued Souf.

مقدمة:

مُنذ فجر التاريخ سعى الإنسان إلى تلبية حاجاته الأساسية، وأهمها حفظ نوعه، لذا كانت الصحّة والمرض من أهم القضايا الفكرية التي حيّرته، فراح يحاكي الطبيعة علّه يجد مفهوما للمرض، ويعطي تفسيرات لكل العلل والأسقام التي قد تصيبه، إلى أن برزت فكرة السّحر وارتبطت بالطّب، وتكوّنت لديه معرفة أولية جسّدها في الأساطير التّعليلية، كما أنه مال إلى تصور غريب مفاده أنّ هناك كائنات غير مرئية أقدر منه وأعلى منه ذكاء، تحكّمت في حياته وحتى في مماته، فما كان منه إلا أن يعتقد ويقرّ بحقيقة وجودها، ويترك زمام الأمور لها، وبهذا تشكّل مفهوم المرض عند غالبية الشُّعوب القديمة، لاسيما مرض العُقم الذي يمنع استمرار الحياة البشرية، ويهدّد وجودها وكيانها، فلقد سَادَ الاعتقاد أن هذه الكائنات الخفية، من شأنها أن تبثّ بشرورها على بني البشر، فتمنع عنهم الإنّجاب، لكنه في ذات الوقت اعتقد بأنّه بإمكانه مواجهتها بتأثير أقوى منها، إيمانا منه بأن هناك قوى خيّرة من شأنها أن تنزّل الشفاء، فراح يستميلها كي توقف عنه لعنة العقم، فمارس الإنسان السّحر الأبيض الدّفاعي، وقدّم القرابين والأضاحي، وأقام الصلوات، وتوسل بالبخور والنّذور، والرُّقى وبصفة أخص التّعاويذ، وهي محور اهتمامنا، فالتّعاويذ من الطقوس السّحرية الشفاهية، حيث يُعتقَدُ أن التلّفظ بعبارات مسّجُوعة ومُقفاة من شأنها أن تُحدث الأثر المرغوب

فيـه(الحمل مـثلا)، كمـا اعتقـد القـدامى أن للكلمـة سـحر وقـوة التّـأثير تضـاهي السّـلاح، وتَكْمُـن قوتهـا في رسـم صـورة ذهنيّـة تُعززهـا النّيـة والتكـرار والإيمـان، وتبعًـا لـذلك اسـتخدمت متبوعـة بطقـوس سـحرية يدويـة كـالتّبخير، دقّ المسـمار، كسـر بيّضـة ... الخ، تسـاعد في صـدّ المـرض والأذى، ولقـد عُـرف عنـد الكثـير مـن الجماعـات البشـرية، بعـض السّـحرة الـذين يمتهنونهـا كحرفـة، كمـا هـو الحـال في بـلاد الرافـدين، وعنـد المصـريين القـدامى الـذين اشـتهروا بممارسـة الشـعائر المتنوعـة وعلـى رأسـها شـعائر الـدفن والبحـث عـن الخلـود[1]، فمـن الطّبيعـي إذن أن يكـون للتّعاويـذ قوالـب جـاهزة مناسـبة لا تقبـل التّعـديل، وشـروط موضـوعة، وأي زيـغ ولـو عفـوي يفقدها فاعليتها.

ومجتمع "واد سوف"، على غرار باقي المجتمعات يُمجد عملية الإنّجاب، ومنه كان العجز على الإنّجاب (العقم)، أحد أكبر المشاكل التي تواجه الحياة الزوجية، فالمرأة التي لا تحمل في غضون الأشهر الأولى من زواجها، يُصيبها القلق، وتخشى خراب حياتها الزوجية، وبما أن المجتمع يعتقد في الكلمة شفاء ودواء، نجد الذّاكرة الشّعبية تعجُّ بالممارسات التي يُعتقدُ من شأنها أن تعجّل بالشّفاء، ويمكننا من هنا الحديث عمّا تدرسه هذه الورقة البحثية وهو: "تعاويذ صدّ العقم وفكّه والطّقوس المرافقة لها"، فقد يحصل أن تتردد المرأة حين تأخر حملها على الطبيب، اعتبارا أنه يقدم حلولا علمية ناجعة، رغم ذلك يعتقدُ في قدرة التّعاويذ والطقوس السّحرية التي ما زالت سارية المفعول في الأوساط النّسوية. فما هو تعريف التّعويذة؟ هل فعلا هناك مسببات بشرية ظاهرة أو خفية تمارس على الزّوجين والمرأة بخاصة، لتمنعها من الإنّجاب؟ وماهي الطقوس التي تستعمل لصدّ هذه الإشكالية؟ كيف تجري ممارستها بين النّساء؟ وما هي التّعويذات السارية المفعول التي يُعتقد بها، وإلى أي مدى تستطيع هذه التعاويذ أن تمارس سلطة تأثيرية في نفسية المرأة العاقر، وماهي آثارها الاجتماعية والثّقافية؟ وللإجابة على هذه

التساؤلات اعتمدت في هذا البحث عن المنهج الأنثروبولوجي، على اعتبار أنه منهج يهتم بدراسة الإنسان من الناحية الفيزيقية، وأيضا من الناحية الاجتماعية، كما يهتم بدراسة منتجات الإنسان وثقافته، ومنه يساعدنا هذا المنهج بالاعتماد على مستوياته (الاثنوغرافي والاثنولوجي والانثروبولوجي)، على إماطة اللثام عن بعض المظاهر الثقافية التي بقيت تعلن حضورها في كل مناسبة.

1- مفاهيم نظرية لمصطلحات العنوان:

1-1- مفهوم التّعويذة والطّقس:

يعرف غليو نجي التّعويذة: " بأنها الصّيغة اللّفظية التي يتلوها سادن السِّحر عند القيام بخدمته، وإنها بشكل عام تتصف بالجمود وعدم القابلية على التّغيير، وقد عدّت أهم أركان السِّحر ومركز القوة الفاعلة فيه، وتلك القوة منحصرة في صيغتها اللّفظية، تنطلق معها من فم المتكلم غير مبالية بشخصه ولا بالمعوذ له، سالكة طريقا ذاتيا لا عودة منه حتى بإرادة قائلها"[2]، و"الغالب أن إسناد القوة الذّاتية للألفاظ قد نشأ عندما بدأ الإنسان يتكلم، لذلك اعتقد القدامى بأن للكلمة حياة خاصة، وأصبحت الكلمة التي تصور المدلول في الفكر البدائي هي المدلول ذاته وعليه وجب الالتزام بشكلها وطريقة ترتيلها، لأن أي خطأ ولو كان عفويا قد يؤدي بصاحبها إلى التهلكة"[3]، وهذا يدلّ على أن التَّعاويذ هي عبارة عن تراكيب لفظية تحمل طاقة سحّرية، ترتكز على قوة الاعتقاد أو النيّة، ليتحقّق مفعولها على الوقائع الحياتية، وتؤدي أغراضا وقائية وعلاجية بالنّسبة لمن يؤمن بها، ويلجأ إليها الإنسان لحل إشكالاته، وما يعْترُض بعض مشاريعه كالزّواج، والعقر، وعادة ما تصحب التّعاويذ طقوس خاصة، فالطّقس يُشير إلى مجموعة من الإجراءات الجاهزة، يؤديها الفرد أو الجماعة بشكل متكرر، في مراسم ثقافية، مشحونة برموز ودلالات واعتقادات دينية، تهدف إلى استمالة الكائنات الخفية أو القوى المقدسة، لتحقيق أغراض شخصية أو اجتماعية، و"الطقوس هي الشّعائر والأعمال الدِّينية التي

تُشكّل الجانب العملي من العقائد واللاهوت وتعبر عن بعض جوانب الميثولوجيا وتكسبها صفة الديمومة والاتصال مع اللاهوت"[4].

2-1- العقم:

العقم هو استحالة القدّرة على الإنّجاب، فهو عبارة "عن مرض عضوي يشترك فيه الرّجال والنّساء ولا يرجى شفاءه، ...ويتعذر معه إنجاب الأولاد"[5]، وفي مجتمع البحث نجد لفظتي العقيم والعاقر تؤديان نفس المعنى وهو عدم القدرة على الإنجاب، بينما يميز بعض الأطباء المختصين بين العقم والعقر، فالأول لا يوجد له علاج، أما ما يمكن علاجه فهي فقط حالات تأخر الإنجاب (العقر) لأسباب عديدة[6]، وأما العامة فيطلقون مصطلح العقر على الحالتين، كما اتخذ هذا المصطلح دلالة استهزاءٍ تشتم به من لا تنجب من النساء، ولا يوصف الرجل بالعقر إلا قليلا، رغم أنه قد يكون هو السبب[7]، وذلك نظرا للهيمنة الذكورية في المجتمعات الإنسانية، وإلصاق كل تهم النقص بالنساء، وقد تخضع المرأة لاختبارات شتّى لكي تكون أهلا للإنجاب.

2- انثربولوجيا تعاويذ وطقوس صدِّ العُقم وفكه:

1-2- انثربولوجيا تعاويذ وطقوس صدّ العُقم ورموزه:

من أكثر المخاوف التي تنتاب الأمهات والفتيات وحتى قبل بلوغ سنّ الزّواج، عدم الحمل والإنّجاب، ودليلنا إلى ذلك عدم إلزام الأمهات بناتهنّ على القيام بأعمال شاقة داخل المنزل خوفًا من حدوث مشاكل في العمود الفقري، أو الأعضاء التناسليّة التي تؤدي إلى العُقر، وقلق الأمهات حين تتأخر العادة الشّهرية على بناتهنّ، حيث يعتبرنها مؤشرا هاما لسلامتهن، وما إن تبلغ الفتاة سنّ الزّواج حتى تُجبر على الالتزام ببعض الممارسات لتقيها من العُقر، لأن مسببات العُقر حسب العامة تختلف عن تفسيرات الطب الرّسمي، فأول التّفسيرات التي تتبناه العامة للعُقر هو انتهاك المحظورات، وهذا محور اهتمامنا، لذا نجدهم يحرصون على صدِّ العُقر من خلال احترام الطّابوهات بالامتثال

لبعض الالتزامات والابتعاد عن بعض النَّواهي، وهكذا فإن المحظور "يحمل مفهوم الحظّر والتحريم، وبشكّل أكثر دقّة التحذير التالي: (لا تلمس)، وهو يطال الأشياء والأشخاص والأفعال، أي بمعنى آخر هناك أشياء لا يمكن لمسها، أو حملها أو أفعال لا يمكن إتيانها، وأشخاص يجب تجنبهم أو البقاء على مسافة بينهم، وأماكن لا يمكن الدخول إليها"[8]، كما يفرض الطّابو على التَّلفظ بألفاظ معينة أو أكل أصناف خاصة من الطّعام، أو قتل الطوطم، أو لمس أشياء بعينها مثل السّلاح أو القوارب أو إتيان اعمال معينة[9]. وبما أن الحمل والإنّجاب عملية تعتبر من ثالوث قيام الحياة الزَّوجية نجد العامة تولي اهتماما كبيرا لهذه العملية، فنجد ممارسات صدِّ العُقر تبدأ من يوم " الفرح" وحتى قبل الاتصال الجنسي بين الزوجين، ومن التَّابوهات المنتشرة نذكر:

أ–استبعاد المرأة العاقر من المشاركة في الطّقوس الخاصة بالعروس (الحِنَّة، كسر البيضَة ولصق عجينة التَّمر)، بما أن العامة ترجع أسباب العُقر إلى لعنة الأرواح الشّريرة والشّياطين التي تنزل العُقر على النّساء بفعل العين الشريرة مثلا، نجدهم ينظرون للعاقر على أنها تحمل لعنة قد تلصقها بالعروس أثناء أداء طقوس المشاركة، وهذا ما يفسر تجنّب أهل العروس مشاركة المرأة العاقر في طقوس العرس. تابو الاستبعاد موغل في القدم، فارتباط العقر بروح الشر جعل الزرادشتيين ينظرون إلى ذوي العاهات بأنهم مرتبطون بروح الشر انكَرامايينيو، لذا عدوا منبوذين اجتماعيا... فالربة أشي تتحدث "لن أقبل القرابين التي يقدمه الرجال المرضى، والعقيمون، النساء العاقرات..."[10]، كما يؤمن الباغاندا في افريقيا الوسطى بالعلاقة الحميمية بين اللقاء بين الجنسين وخصوبة الأرض لدرجة أنهم يبعدون المرأة العقيمة لأنها تمنع بستان زوجها من الإثمار، والعكس صحيح فالزوجان اللذان أثبتا أنهما يتمتعان بخصوبة غير عادية وقد أنجبا توائم، يعتقد الباغاندا أن لديهما قدرة مماثلة في زيادة اثمارية أشجار رموز الجنة[11].

ب–تابو الخروج: هناك اعتقاد راسخ عند أهل منطقة البحث مفاده أن العروس التي تخرج من بيت زوجها قبل سبعة أيام يأتيها "خطّاف العرايس"(جنّي يخطف العروس)، ويحرمها من نعمة الأنجاب، كما يُحرم عليها أيضا تنظيف غُرفتها قبل هذه المدة المحددة، ويفسر الكبار انتشار العقر في الوقت الحالي إلى خرق هذا "التابو"، وقد حدثتنا الرواية "فاطمة فرج" التي التقيتها يوم **16-09-2021**، وهي متذمّرة جدا من حال عرائس اليوم، اللواتي لا يولين اهتماما لهذا الالتزام، ويمكن اعتبار هذا الخرق من الخطايا الخلقية التي يترتب عنها الغضب الإلهي، وبالتالي جلب الشيطان وآثاره الشريرة على الخاطئ "خطاف العرايس" لذا يمكن القول إن المرض والخطيئة مترادفان كما يعتقد البابلي"[12].
نجد المحرمات القائمة على مبدأ التابو موجودة في جميع الأديان وفي كل المجتمعات[13]، ففي الدين البابلي يُعتقد بأن قيام شخص ما بفعل محرم، يجلب عليه المرض، ففي اليوم الثالث من شهر" تشريتو" نقرأ عن الرجل " لا يقترب من امرأة، لأن هذه المرأة تنزع عنه قوة الإخصاب"[14].

إن الهدف من هذه الالتزامات –التي أصبحت عادات– هو صدّ الشر المؤدي للعقر، وخراب الحياة الزوجية، وهذا ما يسمى " منع وقوع الشر" الذي ينص على الالتزام بالواجبات الدينية، وأداء الشعائر والرقص الديني، وحمل التعاويذ لمنع وقوع الشر، وهو سلوك واسع الانتشار بين الشعوب البدائية[15]، ومن الطقوس الممارسة لمنع وقوع الشر في مجتمع البحث نجد طقس:

ج–**كسر البيضة ودقّ المسمار**: ويمارس هذان الطقسان يوم (الرُّوَاحْ)؛ بمعنى يوم انتقال العروس لبيت زوجها، ومن الالتزامات التي تؤديها العروس بمنطقة "سوف" كما حدّثتنا الراوية "حمادي الزهرة" التي جمعنا اللقاء بها يوم **14-09-2021**، "أن تدخل برجلها اليمنى كفأل خير، وتكسر بيضة تحت رجليها. كما تأخذ العروس أو احدى قريباتها مسمارا ويُدق على الجدار وهم يرددون تعويذة : دَقَتْ الأَوْتاَد، وجَابَتْ

الأَولاَد". إن هذا الالتزام يكشف عن اعتقاد راسخ في الذهنية الشعبية، ذلك أن اليمين في الثقافات الإنسانية هو رمز الذكورة والخير، والعامة تستبشر خيرا إذا كان المولود الأول ولدا، وهذا ما يجعلنا نؤكد أن أي ثقافة إنسانية لا تمضي في يسر، لأنها متجذّرة في العقول والأجساد، تبقى تقاوم تحت رداء الثّقافة المهيمنة، كما نجد البيضة من الوسائط المهمة في هذا الطقس، فقد اعتبر القدامى دائما البيضة كمبدأ للحياة، كما انتشر في أندونيسيا وأوقيانوسيا الاعتقاد بأن الرجل الأول تحدّر من بيضة، أسماها مرسيا الياد البيضة البشريّة إلى جانب البيضة الكونية[16]، اذن البيضة هي رمز للإخصاب وكسرها يوحي بفض غشاء البكارة الذي يمكننا اعتباره طقسَ عبور تنتقل به الفتاة إلى مرحلة الأمومة (الحمل والانجاب)، كما تحرص نسوة المنطقة على ترديد هذه التّعويذة "دقت الأوتاد، وجابت الأولاد"، كما هي دون خلل في نطقها، وذلك راجع إلى أهمية المعنى الذي تؤديه، فالعامة تعتقد أن للكلمات قوة وقدرة جنسية تضاهي عملية الجماع، وهذا ما أكده علم النفس المرضي وتاريخ الأديان حيث يقدمان لنا أمثلة عديدة تقترن اللغة فيها بالقدرة الجنسية والكلمة بالمني[17]، ذلك أنها ترسم صورة ذهنية، تُشكّل فكرة واضحة مرغوب في إسقاطها على أرض الواقع، فجاءت هذه العبارة تشبيهية، حيث يُشبّه الأولاد بوتد الخيمة، والوتد كما هو معلوم أساس قيام الخيمة، فكذلك حال البيت لا يقوم بدون أولاد، فالكلمة حسب هذا هي من تعطي للفكرة وجودها الأصح. نلاحظ إذن أن هذا الطقس تؤديه العروس وحدها دون العريس، كما أنه أول ممارسة تقوم بها العروس في بيتها الجديد، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن العامة لم تضع هذه الممارسات اعتباطا، وانما كل شيء مرتب ومُحكَم وفق ما تقتضيه الحاجة والأولويات، وهي إشارة مهمة تفسر عقلية المجتمع الصحراوي الذي يسند للمرأة مسؤولية الحمل والانّجاب والحفاظ على الأسرة، والمرأة بدون وعي منها تخضع لسلطة المجتمع الذي لا يعترف بإنسانيتها إلا إذا أنجبت، وطقس كسر البيضة موجود أيضا في فلسطين وهذا ما ذكره طه نضال بقوله: " لما عبر العروس

على دار عريسها بيكسروا بيضة تفشق عنها"[18]، ومن شروط الزواج الهندوسي نجد طقس السير على البيض، حيث يتم التقابل الزوجي على بعد سبع خطوات، ثم يسير العريسان فوق بيض وترمى عليهما الزهور[19].

وبما أن أهل المنطقة يعتنقون الإسلام نجد انتشار الرقى وأذكار التّحصين والدّعاء كأساليب وقائية كأدعية الصباح والمساء، والاستغفار والالتزام بسورة البقرة، وقد أكدت لنا الراوية "تجانية بيات" التي التقيتها يوم 14-09-2021، أن حملها كان يتم من خلال الالتزام بقراءة المعوذات وسورة ياسين .

هذه بعض التعاويذ المنتشرة في المنطقة التي تهدف إلى صد العقم، نتبين من خلالها مدى خوف المرأة خاصة من لعنة العقم، وهي كما رأينا مرتبطة بمعتقدات ضاربة في القدم، راسخة في وجدان الأمم.

2-2- انثربولوجيا تعاويذ وطقوس فك العقم ورموزها:

بالرغم من كل التّعاويذ السابقة الوقائية قد يحصل أن يتأخر الإنجاب، ويبدأ القلق يدب إلى قلب المرأة التي يكثر عليها السؤال "كش ما ناب ربي"، أي؛ "هل رزقك الله بالحمل"، وتحت ضغط نظرات التّشفي والاستعطاف " الله يهلك الظلام، وولد الحرام، "الله يحلّ أرحامك"، نجد المرأة تطرق سبلا أخرى غير الطب الرّسمي، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها، الخوف من شك الرجل أو أهله بأنها عاقر، وبالتالي بات الخراب يهدد حياتها الزوجية، لذا تستبعد المرأة الذهاب إلى الطب الرّسمي إلا إذا طال الطلب، وقد ذكرت لنا إحدى المخبرات بعض الحيل التي تلجأ إليها النّساء قديما لإبعاد الشّك، وهي أن تتظاهر الفتاة بأنها حامل، حيث تضع شيئا (مخدة، كومة قش)، يبرز بطنها وتربطه بحزامها وبحلول العادة الشهرية تخبرهم بأنها "لاحت" -أي سقط جنينها- وبهذه الفعلة يطمئن الزوج وأهله إلى إمكانية حدوث الحمل، وكذلك لأن الطب الرّسمي يفسر إمكانية التأخر إلى مشاكل تتعلق بالرجل، وهذا يعتبر دخول في دائرة اللاّمساس عند

العامة. كما يمكن إرجاعه إلى تفسير العامة، الذين يرجعون العقم إلى تأثير الأرواح الشريرة، أو اللعنات التي تبعثها شرور البشر(كالعين والتابعة والسّحر...)، بالإضافة إلى أن طبيعة "وادي سوف" الصحراوية عزّزت الاعتقاد في السّحر وتأثير الأرواح الشريرة كأول مسبب للعقم، واستجابة للمتطلبات البيولوجية والاجتماعية والنفسية وتحت القهر النفسي تعاني المرأة من الاستلاب الأبوي، ويعني هذا "تبني المرأة لقيم سلوكية ونظرة إلى الوجود تتماشى مع القهر الذي فرض عليها من رضوخ وتبعية"[20]، ولذا وجب عليها استرضاء هذه المخلوقات وتقديم القرابين والنذر لها، علّها ترحمها ولا تحرمها. وفقا لهذا تمارس الطقوس السّحرية بكثرة في المنطقة منها ما هي سحرية خالصة، وطقوس أخرى مدعمة بالدين ومنها:

أ–تعاويذ فك العقم الأوّلي (طقوسها ورموزها) الذي يقصد به عدم إمكانية حدوث حمل عند المرأة بعد سنين من الزّواج وهي تعيش حياة جنسية طبيعية ومنتظمة[21]، ويرجع العامة أسباب هذا العقم إلى لعنات الأرواح الشريرة التي تحلّ على المرأة نتيجة اقترافها للخطايا، كأن تسكب الماء السّاخن دون ذِكر الله، أو تترك لوحدها وهي عروس، فيتسلّط عليها "خطّاف العرايس"، ويسكن أرحمها فيعقّرها، أو تنام على عتبات البيوت، وغيرها من الخطايا التي تحول بينها وبين الحمل، وبالتالي وجب على العاقر "التّسبب" أي؛ التماس الحلول، ومن الطقوس المعمول بها في المنطقة نرصد:

1–طقس محاكاة الحمل والولادة: تحدثنا الراوية بالعروسي روضة تقول" أذا أرادت العاقر أن تحمل تضع تحت الحولي شيئا يبرز بطنها وكأنها تحمل جنينا ثم تخلد إلى النّوم، وفي الصباح تحل رباط الحزام ليسقط ما تحت ملابسها. يندرج طقس المحاكاة والولادة تحت ما يسمى السّحر التشابهي، القائم على مبدأ "المتشابهات تولد المتشابهات"،" فتقليد الحمل كناية عن الحمل الحقيقي الذي تأمل العاقر أن يتحقق، وقد ذكر "فريزر" طقسا مشابها لمحاكاة الحمل، فالمرأة العاقر عند "الباتاكا "Batakas في سومطرة، والتي

تتمنى الإنجاب تصنع من الخشب دمية لطفل تحملها في حجرها، اعتقادا منها أن هذا سيحقق بغيتها[22]، وفي فلسطين تمثل المرأة نفسها وكأنها تحمل طفلا ثم تضعه داخل ملابسها وتخرجه وكأنها تقوم بعملية الولادة[23].

إذا توقفنا هُنيهة هنا، نستنبط من هذا الطقس مفهوما مغايرا لعملية الحمل والإنجاب البيولوجية، إذ أن هذه الممارسات الشّعبية توحي أن الحمل والانجاب لا يتم فقط من خلال الجماع ثم الحمل فالولادة، بل أن الحمل يقع نتيجة تأثير الأرواح بالدرجة الأولى، وأن الطقوس الممارسة هي التي "تخلق العفريت أو الجني"[24]، الذي سيكون خادما للمرأة التي ترغب في الانجاب، ولهذا الاعتقاد رواسب ثقافية، ذلك أن بعض الشعوب تفهم هذه العلاقة فهما خاصا، لا ترى علاقة البتة بين الجماع والانجاب، أما الجماع فهو عملية لا تتعدى وظيفتها إشباع الشهوة الجنسية[25].

2– طقس الطواف بالحزام: تقول الراوية "يمينة بيات" التي التقيناها يوم 03-0-2016، أنّه باقتراب موسم الحج، نجد المرأة بمنطقة البحث، تتحين الفرصة لأداء أحد أكثر الطقوس أهمية لارتباطه مباشرة بالدين، حيث تتحزم العاقر بحزامها وتعقده سبع عقد وتنزعه من تحت، كي لا تحل العقد وتعطيه إلى حاجة ذاهبة لتؤدي فريضة الحج، لتطوف به حول الكعبة سبع مرات وهي تردد" يا رب حَلِتلّها حَزامها وارْحَامهَا" أي؛ "يا رب فتحت حزامها وأرحامها". يندرج هذا الطقس تحت ما يسمى السّحر الاتصالي أو التّجاور كما يسميه فريزر "أي أن الأشياء التي يتصل بعضها ببعض يبقى تأثيرها مستمرا من بعيد، بعد انقطاع الاتصال المادي بينهما"[26]، فالحزام هو أثر من المرأة، وهناك خرافة شائعة في أوربا تقتضي بأنه لا يمكن إلقاء الحزام ومن أراد التخلص منه أحرقه، لئلا تستولي عليه ساحرة وتضع صاحبه المتغافل تحت سيطرتها[27]، وبالتالي يعتقد أن حلّ عقده في مكان تغيب فيه الشياطين، سيبطل عمل السحر ويقع الحمل، كما أن للعقد ارتباطا وثيقا بالسحر الخاص بالفك والعقد، واختصت العقدة بقوة سحرية، وهناك قوة

ملازمة في العقد ترمز للقدرة الخفية للإنبات التي تنمو من جديد تدفعها قوة البداية المقدسة[28]. ونتيجة لما سبق نلاحظ جليا أن هذا الطقس معزز بالمعتقد بالديني، فالكعبة هي مكان مقدس في الثقافة الإسلامية وبها يكون العبد أقرب إلى ربه ومنه يرجى استجابة الدعاء، فالممارسة القولية لدعاء "يا رب حَلتلْهَا حزَامْهَا وَاَرْحَامْهَا"، يرجى منه حقيقة فعلية تعود على المرأة بالحمل والانجاب والأدعية في أساسها تقوم على أمل سحري في الخلاص من خلال الاعتقاد بجبروت الأفكار، والكلمات وما تتضمنه من رغبات فهي تشيع نفسيا نوعا من الاطمئنان إلى القدر والمصير وتبث هدوءً في وجود الإنسان المتأزم من خلال القناعة بأن هناك جهة ما ستتولى حل الأزمة وتخليصه منها[29].

في عرف العامة يمكن للمرأة أن تتسبب في العقم الأولي إذا ارادت ذلك، حيث يشاع في منطقة "سوف" الزواج المبكر، ومن المخاوف التي تنتاب الفتاة قبل عرسها عدم التّفاهم مع الزوج، وفي هذه الحالة تخاف من وقوع الحمل، لأنه يُعَقّدُ حياتها، ونستدل بذلك من خلال رفض الأعراف لمنطق الطلاق والذي لا ترى له مبررا ما دام هناك أولاد، كما أنّ فرص الزواج مرة أخرى تقلّ لأن الشباب في المنطقة لا يستسيغون الزواج من امرأة لها أولاد، وبدافع الحذر تلجأ الفتاة إلى طقس تأخر الإنجاب الذي تحدثنا عنه الراوية "يمينة بيات"بقولها" من تريد أن تؤخر حملها يوم عرسها تلحس أصابعها المخضبة بالحنّاء، بطريقة عكسية من الأعلى إلى الأسفل، وهي تردد التعويذة " لحَستْ ضَنَايَا، مَا لحَسْت دمَاياَ" (لحست دم الولادة لا دم الدورة الشهرية)، وكل أصبع ملحوس من أصابعها يمثل عاما من أعوام تأخر حملها.

يُعتقد في هذا الطقس، أن هذه التّعويذة قادرة على أن تمنح للمرأة رغبتها، من خلال التوافق الحاصل بين الطقس والتعويذة ورموزهما، فالمرأة تستعين بالأعضاء التي ترمز للحمل والولادة، بدءا باليد، التي تعتبر رمزا للقوة الخالقة لدى الشعوب القديمة[30]، وهذا الطقس كما ذكرنا يجرى على الأصابع، و"قد عرض يونغ أحلاما عديدة تلعب فيها الأصابع

دورا جنسيا ممثلة بذلك تصغيرا لرمز الذكورة[31]، فالمرأة دائما ما تحبذ أن يكون وليدها الأول ذكرا ولو بعد حين، أما العضو الفاعل فهو اللسان فهو "يعتبر عضو الخلق، فطبقا للنظام الديني في منف جاء العالم إلى الوجود عن طريق كلمة، وكان القلب واللسان عضوي الخلق، لأنه بواسطة لسانه أحيا كل ما أدركه في قلبه"[32]، وفي مثالنا هذا ترغب المرأة من وراء هذا القول أن تلحس دم الولادة، لا دم الدورة الشهرية، و" اللَّحس كما هو معلوم يكون عن طريق اللعاب، الذي يعتبر رمزا أسطوريا للحياة، في دول الشرق"[33]، و"الفم هو المكان الأسطوري للولادة"[34]، فهو كالرحم الذي يحمل الجنين، والمرأة كما هو واضح في الطقس تلحس الحناء التي تشبه الدم في لونها، فهي تعتقد أنها حين تلحس أصابعها المخضبة بالحناء من الأعلى إلى الأسفل، مع نطقها التعويذةَ تستطيع أن تحقق ما يجوب في خاطرها من أفكار، كأن تمنع حدوث الحمل عند المعاشرة الزّوجية وبالتالي هبوط العادة الشّهرية، وهذا ما يضمن لها عدم وقوع الحمل، وعلى حسب المدة التي تريدها هي.

ب– تعاويذ فك العقم الثانوي (طقوسها ورموزها): يعني عدم حدوث حمل جديد بعد مرور سنين من الحمل الأول رغم رغبة الزوجين في الإنجاب، أو قد يحدث حمل لكنه ينتهي بإجهاض دون الحصول على الطفل[35]، وعلى الرغم من الإنجازات العلمية التي يشهدها العالم اليوم لا سيما في المجال الطبي، وما يقدمه من حلول أثبتت التجارب نجاعتها، كالتلقيح الاصطناعي الذي أجازته الفتاوى الإسلامية، وأباحه القانون، كلما دعت الحاجة، إلا أنّنا نجد مجتمع البحث لا يطمئن إلى هذا النوع من العلاج، فحينما يدق ناقوس الخطر، نجد النساء يهرولن إلى الممارسات السّحرية، ومن فك العقم الثانوي المنتشرة في المنطقة، ما أخبرتنا به الراوية:

1– أن تأخذ الأم ابنها البكر وتضرب بجذر جبهته على ذكار النّخلة وتقول له: "تَنْطَح أو تَصُك"، أي؛ من (النَّطح والصّكِ)، فإذا قال "نصك" تدرك الأم أنها ستنجب

بعده أما إذا قال "ننطح" تضع علامة (+) في جبهته وبإذن الله ستحمل وتنجب، ويعتقد بأنها ستحمل وتنجب.

للوهلة الأولى نلاحظ أن هذه التّعويذة، غامضة وصعبة الفهم، لكننا إذا حاولنا فك شفراتها، نلمح جليا أن مصطلحي "تنطح" و"تصك " هي مصطلحات تصف حركات حيوانية، وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أنّ الإنسان يلوذ إلى حيونة تفكيره، ويميل إلى لعب دوره كما يعتقد كراب[36]، وفي كل مرة يزج بالحيوان وما يتعلق به في حل مشكلاته، وهذا راجع إلى مكانة الحيوان عند الانسان، الذي خافه في بادئ الأمر وعبده، وكان يعتبره بشرا مسحورا، له قدرات خارقة، وكذلك حاملات للقوى الخارقة للطبيعة[37]، لهذا هناك من يرى وجود قرابة ما بين الحيوان وحركته في نفسية الإنسان[38]، ففي هذه التّعويذة التّشبيهية، تقول المرأة للطفل (تَنْطَحْ ولَا تْصُكْ)، حيث يُخيل إليها أنّ هذه الكلمات تحدث تأثيرا ينتهي بتبادل الأدوار بين الطفل والحيوان، واختلاط مشاعرهما. وما هو معلوم أن النّطح يقوم بها ذكور الحيوان التي تحمل قرونا، و"القرن يبرز قوة حاملها"[39]، وهو الرمز الأمثل لقوة الرجولة، وتلاحظ ماري بونابرت أن لفظة قرن queren العبرية تعني القرن والقدرة في نفس الوقت[40]، وكما نعرف أن النطح يكون بالعنف، إذ أن اختيار هذه الصفة بالذات يرجى من ورائها زيادة الفحولة التي يعتقد حتما أنها تزيد من الرغبة الجنسية، وبالتالي ارتفاع احتمالية وقوع الحمل. ونرى رمز الرسم على شكل صليب حاضر في هذا الطقس، ومن المتعارف عليه أن الصليب يرمز للمسيحية، ولكنه في كثير من الثقافات يحمل رموزا أخرى، ففي النيوليت يرمز للخصب، وهو إذ يعبر عن تقاطع عمودين صغيرين في الغالب، فهو ينطلق من تصور أقدم يعبر عن لقاء ذكري أنثوي[41].وبالتالي نقول أن الرسم على شكل صليب ليس اعتباطيا، وإنما يعتبر تعويذة لفك العقم، وهذا الطقس يدفعنا إلى استحضار قصة السيدة مريم عليها السلام، حينما انجبت تحت جذع النّخلة، لذلك تحسب العامة أن النّخلة مباركة تساعد على الإنجاب.

والعامة كما نعلم تتبرك بالصالحين، وترى في اتباع أقوالهم وأفعالهم الخير الكثير، فالطقس إذن مدفوع بالدين. أما الضرب على الذكار كناية عن النطفة المخصبة من الرجل فيستعاض عليها بحبوب اللقاح من النخلة المذكر[42]، ونجد في المغرب طقسا مشابها، فإذا أرادت النّساء في مراكش أن يتجنبن العقم، لففن أحزمتهن حول جذع شجرة سبع مرات، وتركنها هناك سبع أيام[43]. فالتّعويذة السابقة المصاحبة للطقوس من شأنها أن تزيد من فاعلية العلاج، وتعجّل في حلّ الإشكال، حسب المعتقدات الشعبية.

2–المَحْيُوصَة: هي المرأة التي أصابتها العين الشريرة وسببت لها العقم، أو تلك المرأة المسحورة بالسحر الانتقامي، وعليه تذهب المِحْيُوصَة كما تخبرنا الراوية "يمينة بيات"إلى قبر ميت قُتل غدرا (بالحديد) وتتخطاه وهي تردد التعويذة الآتية " يا الميت مَحْرُوْص (قتل عمدا)، حلْ حزام المِحْيوصْ أي؛ أيها الميت غدرا حل حزام العاقر.

سيبقى لغز الموت يحير بني البشر إلى يوم الأبد، فهو رمز الغموض والمجهول، والانتقال من العالم المعروف إلى عالم مجهول، حيث ينفصل فيه الجسد عن الروح، وفي اعتقاد العامة أن هذه الروح من شأنها أن تحدث تأثيرا في الأحياء، خاصة عند مغادرتها للحياة غدرا، فتبقى مضطربة تود الرجوع، وبتلك التّعويذة تعتقد العاقر أنها تتودد إلى روح الميت لتسكن رحمها، وتعاود ارجاعها إلى الحياة عن طريق الحمل، الذي يعتبر طقسَ عبور، به تنتقل الروح من العالم السفلي إلى العالم العلوي، وتساعد العاقر روح الميت على العودة للحياة، عن طريق حملها لتستقر حياتها الزوجية. إنه معتقد ضارب في القدم، ففي بلاد الرافدين يُعتقد أن النّساء الحوامل معرضات للأرواح الشريرة، وتذكر العقائد القديمة ومنها الأرواحية أحوال ما بعد الموت، ويبدو أن أرواح الموتى تحصل على الراحة بنسب متفاوتة، أما روح القتيل فتضل مضطربة، ونجد هذا عندما سأل جلجامش أنكيدوا هل رأيت جثمان الذي ترك في البرية؟ أجابه: نعم رأيته، وكانت روحه قلقة لا تجد الراحة في العالم

الأسفل[44]. كل هذه الطقوس الممارسة يُرجى منها حدوث الحمل، وفي مجتمع البحث كثيرا ما يفضل الحمل بالذكور.

هذه بعض التعاويذ والطقوس التي تلجأ إليها العاقر لتخلص من لعنة العقم، وكما رأينا فإن هذه الممارسات تندرج تحت السحر الأبيض الدفاعي، منها ما هو سحري خالص ومنها ما هو معزز بالدين.

الخاتمة:

وفي الأخير نخلص من هذا العرض "تعاويذ صدّ العقم وفكه والطّقوس المرافقة لها" بعدة نتائج نوجزها فيما يلي:

– ما زالت تعاويذ صد العقم وفكه منتشرة في منطقة سوف في الجنوب الشرقي من الجزائر ونتبين من هذا تمسك أهل المنطقة بالثقافة الشعبية، كما أن بقاء التعاويذ واستمرارها مرهون بأهمية الخصوبة بالنسبة للمجتمعات الإنسانية جمعاء.

– التّعويذة قطعة نثرية قصيرة الحجم غالبا، تراكيبها عبارة عن سلسلة من التشبيهات والاستعارات والسجوع والجناسات، يسهل حفظها وإلقاؤها، تجرى على لسان المريض أو المعزم، لتنشيط الجانب الروحاني خاصة، تلقى في جميع المناسبات، تؤدي أغراضا علاجية أو احترازية، وعلى رغم قصرها، إلا أنها مليئة بالمعتقدات والحمولات والرموز الثقافية والتاريخية والدينية، تفسر وتعلل ظواهر طبيعية، ولها خصوصية تؤهلها للسيطرة على القوى فوق الطبيعية، نظرا لتراكيبها المعقدة ولقدرتها على استيعاب كل الأفكار، وبالتالي إحداث أثر قوي من شأنه أن يبقى راسخا في وجدان الأمم، متجذرا ومتغلغلا في العقول، فهي تضاهي الأسطورة، والحكاية، فلهذا نسائل لماذا لم تصنف كنوع أدبي شعبي؟.

– التعويذة والدواء متشابهان ولكليهما دواعٍ للاستعمال، ولهما موانع أيضا، وأي خرق قد يُحدث أثارا جانبية ويبطل فاعليتها، كإنزال اللعنات، والأسقام، أو حتى الموت. لهذا كان الساحر يطلق عليه الطبيب.

– عندما نتحدث عن مسألة العقم في مجتمع البحث فإننا نتحدث عن مسألة ثقافية أكثر منها علمية وهذا ما يفسّر انتشار الطقوس والممارسات العلاجية الشعبية، فهناك من يقول بأن مسألة العقم ناتجة عن سحر أو عكوس من نوعا ما، وغالبا ما تكون النساء هن من يتحدثن بهذا المنطق، فيتجهن صوب العرافة والممارسات السحرية.

– هاجس الولادة يحكم حياة المرأة بشكل بيولوجي ونفسيّ واجتماعيّ لذلك تولي له اهتماما كبيرا، وبالتالي حل إشكالية العقم عند النساء طبيعية، فالمرأة شديدة الحساسية وتتحاشى أن تكون زميلاتها قد أنجبن وهي لم تنجب بعد، رغم زواجها المبكر.

– على الرغم من تنوع الثقافات الإنسانية وتعددها، لاحظنا أنها تتقاطع وتتشابه في بعض الطقوس ونتبين من هذا وحدة العقل البشري الذي يولي اهتماما كبيرا لحفظ النوع لارتباطه بالحاجات الأساسية للإنسان.

الهوامش:

---

[1]- ينظر: حماد حنان وبالقاسم رحماني، شعائر الدفن والبحث عن الخلود لدى المصريين القدماء، محلة قبس للدراسات الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد الخامس (5)، العدد الأوّل (1)، ص ص 905- 9026، جويلية 2021.

[2] –أسامة عدنان يحي، السحر والطب في الحضارات القديمة دراسة تاريخية مقارنة، أشور بانيبال للكتاب، بغداد، ط1، 2015، ص 230.

[3] –المرجع نفسه، ص 231.

[4] –خزعل الماجدي، متون سومر، الكتاب الأول التاريخ الميثولوجيا اللاهوت، الطقوس، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1998، ص 309.

[5] –ينظر: سارة علاء عبد الهادي، العقم لدى النساء، بحث مقدم إلى مجلس كلية التربية الأساسية\قسم العلوم كجزء من متطلبات نيل شهادة البكلوريوس في العلوم\ علوم الحياة، جامعة بابل، العراق، ص 6-7.

[6] –ينظر: المرجع نفسه، ص 2.

[7] -الطاهر براهمي، العقم بين الطب الشعبي والطب الرسمي في المجتمع الجزائري، دراسة في انثربولوجية الطب لمرض العقم، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، قسم التاريخ، شعبة الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2015-2016، ص 26.

[8] -أسامة عدنان يحي، السحر والطب في الحضارات القديمة، ص 191.

[9] -شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثربولوجيا، جامعة الكويت، ط1، 1981، ص 943.

[10] - المرجع السابق، ص 133-134.

[11] -جيمس جورج فريزر، الغصن الذهبي، دراسة في السحر والدين، تر: نايف الخوص، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2014، ص 189.

[12] -أسامة عدنان يحي، السحر والطب في الحضارات القديمة، ص 33.

[13] -المرجع نفسه، ص 119.

[14] -المرجع نفسه، ص 120.

[15] -سمير شيخاني، الخرافات هل تؤمن بها؟، عز الدين للطباعة والنشر، ط2، 1988، ص 24.

[16] -فيليب سيرنج، الرموز في الفن، الأديان الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1، 1992، ص 168.

[17] -جيلبير دوران، الانثربولوجيا، رموزها أساطيرها أنساقها، تر: مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2006، ص 135.

[18] -نضال فخري طه، الطقوس والمعتقدات الشعبية والاجتماعية في الأدب الشعبي في محافظة رام الله، قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات دراسة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، في نابلس، فلسطين، 2009، ص 268

[19] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[20] -مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط9، 2005، ص 32.

[21] -سارة علاء عبد الهادي، العقم لدى النساء، ص 2.

[22] -جيمس جورج فريزر، الغصن الذهبي، ص 204.

[23] -نضال فخري طه، الطقوس والمعتقدات الشعبية والاجتماعية في الأدب الشعبي في محافظة رام الله، ص 35.

[24] -إدموند دوتي، الدين والسحر في شمال افريقيا، تر: فريد الزاهي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2018، ص 107

[25] - ينظر: مصطفى شاكر سليم، قاموس الانثربولوجيا، ص 778.

[26] -جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ص 23.

[27] -ينظر: بيار كانا فاجيو، معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في آوربا، تر: أحمد طبال، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط9، 1999، ص 78.

[28] -ينظر: مانفرد لوركر، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، تر: صلاح الدين رمضان، مكتبة مديولي، القاهرة، ط1، 2000، ص 184.

[29] -مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، ص 146.

[30] - مانفرد لوركر، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، 251.

[31] -جيلبير دوران، الانثربولوجيا، ص 190.

[32] -المرجع السابق، ص 210.

[33] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[34] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[35] -سارة علاء عبد الهادي، العقم لدى النساء، ص 7.

[36] -جيلبير دوران، الأنثربولوجيا، ص 47.

[37] - مانفرد لوركر، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، ص 122.

[38] - المرجع السابق، ص 48.

[39] -بيار كانا فاجيو، معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في آوربا، ص 236.

[40] -المرجع السابق، 188.

[41] -خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق،1997، ص 103.

[42] -أحمد زغب، الفولكلور النظرية المنهج التطبيق، دار هومة، 2015، ص 69.

[43] - بيار كانا فاجيو، معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في آوربا، ص 138.

[44] - نظال فخري طه، الطقوس والمعتقدات الشعبية والإجتماعية في الأدب الشعبي في محافظة رام الله، ص 36-37.